

محمود درويش وجائزة اللوتس

قبل ثلاث وعشرين سنة كان الصبي محمود درويش يماني ليلا امر واطول من ليل امريه القيس ، وهو يزحف مع اهالي البروة ، تاركين سهول فلسطين وبياراتها ، يطوون الجبال والانجاد وعيونهم تنحدر صدر الجبال السوداء البعيدة ، تبحث عن لبنان . ان احدا من قافلة المشردين تلك ، لم يدر بخلده بان هذا الصبي الناحل ، الذي يبدو وكأن السماء قبلته بعينييه ، سيحمل يوما ما صليب فلسطين ، وتصبح شفاته قيثارة لاعذب الالحن الفلسطينية واشجاءها .

لقد كانت سنواته الست يومذاك اعجز من ان تفهم لماذا وكيف يترك الانسان بيته وملاصبه صباه واشيائه الجميلة ، وهكذا بلا سبب وببتر تصفي يضيح الحلم من يديه الصغيرتين لتتقيدا بهوم التفكير والتأمل الذي خلق لراس اكبر من راسه . وكانت هذه الاحداث اول وسم في نفس الفتى ترك اخايد عميقة في حياته انعكست في شعره .

ويود محمود من لبنان متسللا كما خرج هاربا بلوذ باكناف الظلام ، ورغم عمورة الطريق ، تفر فرحة العودة الى مرايع الصبا قلبه الصغير . ولكنه سرعان ما يجد نفسه في دير الاسد ، تطل البروة عليه او يطل عليها صبّاح مساء ولا يستطيع الخطو على ترابها ، « حرام على بلبله الدوح » ، ويبقى محمود في وطنه حاضرا غائبا ، بموجب القانون ، الذي لا يزال يحاصره حتى الان ويمنع منه الحصول على الجنسية ، حتى انه قبل سنتين عندما دعاه المفكر الفرنسي رودنسون الى باريس ، منعت السلطات الفرنسية من دخولها بسبب عدم اكتمال قانونية اوراقه . فنام ليله في المطار واقتيد في الصباح مخفورا الى اول طائرة متجهة الى بولونيا .

هكذا كانت طفولة محمود تختلط فيها احلام الصغار بهوم الكبار ، وتمتزج فيها ظلال حياته الخاصة بكآبة المأساة العامة ، لاجيء في لبنان، ولاجيء في وطنه فلسطين . سجين في البيت وسجين في الشارع ، وسجين في السجن ، وسجين في السفر . حصار من كل جانب ، فكان من قدره ان يحمل صورة ذلك الوطن في عينيه وفي قلبه وعلى لسانه ، صورة كما يراها ، وكما يفرض الواقع رؤيتها ، وكما يطمح مستقبلا

ان تكون ،

التقيت به اول مرة في مهرجان شعري مقد في عكا سنة ١٩٥٨ ، ويومها كانت المهرجانات الشعرية هي المنابر التي يلتقي بها الشعر والشعب بالمأساة ، كان لا يزال في ثانوية كفرطاسين ، وانشد تلك الليلة قصيدة طويلة ، ولما سألتني رأيي ، وكان يجلس صدفه الى جانبي ، قلت : هذا الزخم الكافي في بعض ابيات القصيدة . وهذه الحرارة المتألفة في روحها وتلك الشفافية في صورها ستجمل منك شاعر الارض المحتلة يوم تتخلص من تكرار الصورة ، والركاكة التي يفرضها عليك تركيب القصيدة الكلاسيكي .

ويقينا فلقد كان محمود يبشر بشاعرية خصبة موهوبة وكان يبحث عن الطريقة التي توازج بين الرومانسية وبين واقعية الموضوعات التي تشده اليها، اذ انه في تلك الفترة بدأت افكاره القومية والاجتماعية تتبلور بخط متواز مع شعره، فانتمى الى « حركة الارض » القومية في اواخر الخمسينات ، ولما لوحقت هذه الحركة واغلقت صحيفتها ، كتب في صحيفة الحزب الشيوعي الاسرائيلي « الاتحاد » فوجد فيها منبرا لشعره . ثم انضم نهائيا الى الحزب وبقي ينقح قصائده الوطنية ذات المحتوى الاجتماعي التقدمي الانساني ، ومحور ولائه يدور حول قضية فلسطين .

لقد صدر عام ١٩٦٠ ديوان محمود الاول « مصافير بلا اجنحة » ومع انه كان يحمل بلوة نية طيبة ، الا انه كان تعبيراً عن محاولات شعرية غير متكاملة البناء الفني .

وفي عام ١٩٦٤ اصدر ديوانه الثاني « اوراق الزيتون » ، كان عبارة عن وثبة الى الامام في المضمون والاطار اذ انتقل بموضوعاته الشعرية الى مضامين اكثر جدية ووعيا ، فكيفما تنقلت في قصائد الديوان تعبق امامك رائحة الريف والجدل المتشيت بالارض . ولعل ابرز قصائد الديوان ، بطاقة هوية .

اما ديوان محمود الثالث « عاشق من فلسطين » فقد صدر عام ١٩٦٦ .

انه حدث في هذا الديوان تغير في النبيرة ، فالصوت فيه همسة سحبة الكمان ، والاشارة الموحية تحل مكان شرح تفاصيل الصورة .